باب المراسلة والمناظرة

البراجماتزم

او مذهب الذرائع

حلقة من السلسلة الفلسفية التي تنشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر تأليف الاستاذ «يعقوب فم» الاستاذ في التربية من جامعة «ييل» — «الاميركية» — ٢٠٤ صفحة من القطع الاوسط

قرأت هذا الكتاب من ألفه الى يائه ، وأطلت فيه النظر والبحث ، فكان أول ما ملك علي تأملي حقيقة ان ضبط استعمال المصطلحات ينبغي ان يكون اساس البحث في موضوع علمي أو فلسفي . والواقع ان ضبط استعمال المصطلحات وتحديد مدلولاتها ، سواء أفي العلم أم في الادب أم في الفن أم في الفلسفة ، هو في هذا العصر كما كان منذ اقدم العصور اساس البيان الفكري وعمدة التعبير عن الفكرات والمذاهب في حدودها الصحيحة التي لن يكون من فهم بدونها . ذلك بان استعمال المصطلح في غير ما وضع للدلالة عليه مفسدٌ للفكر معثرٌ للفهم مضيعٌ للحقائق . واشد من ذلك نكاية بالفكر والتفكير أن تستعمل مصطلحاً بعينه في مواضع متفرقة للدلالة على معان مختلفة . وشيء من هذا ، بل الكثير منهُ ، وقع لي وانا مكب على قراءة هذا الكتاب حتى لقد ضيعت عليَّ اناحية الكاتب في استعمال المصطلحات وقتاً أنفقتهُ فيه ، ثم خرجت من آخره كما دخلت من أوله، لست «بأعلم في يومي مما كنت في أمسي» على ما يقول «جوته» بلسان «فوست»

على اني اردت ان انقد الكتاب من ناحية الموضوع ، فلم استطع ، وضاع كل تعب بذلتهُ في هذه السبيل سدًى . فقد رأيت واجباً عليَّ ، اذا انا اردت ان أنحو في نقد الكتاب هذا النحو ، ان أضع نفسي في موضع المؤلف فأحدد للمصطلحات معانيها وأضع للجمل وروابطها والعبارات مقدماتها ونتائجها ، ثم انظر هل أفلحت في ان أخرج من هذا الكتاب هيكلاً جديداً يمكن ان يتصل وفكري بصلة تقربني من فهم ما اراد المؤلف ان يؤدي الى قرائه من رسالة بهذا الكتاب

لهذا عمدت الى نقد استعمال المصطلحات في الكتاب لأظهر للقارىء شيئاً من الفوضى الخطيرة التي اوقعني فيها المؤلف بكتابه هذا . وسأعالج بعض مصطلحات الكتاب في هذه العجالة التي أبين عن شيء مما ذكرت في نتيجة هذا النقد

(١) — Pragmatism — عربها حضرة المؤلف فقال « البراجاتزم » أو «مذهب الذرائع» ولا أثر للعلاقة بين مؤدى هذا المذهب والذرائع لغة . وفي القاموس تذرع بذريعة توسل بوسيلة.

فعنى بمذهب الذرائع : مذهب الوسائل، وأن هذا المعنى هو المراد الاصطلاح الاصلي ، والمقصود بالمذهب العملي . ومهما يكن من احتجاج بعضهم بعلاقة بين نسبة المذهب بالمذهب العملي وبين مفهوم المذهب ، فمن الاشتقاق الاصلي لا يدخل المذهب في الفرعية يسوّغ ذلك

جاء في معجم وبستر ص ٢٣٠٠ :

Pragmatic; Pragmatical (L. Pragmaticus busy, active, skilled in business especially in law and state affairs, systematic.

يذكر في هذا المعجم وفي غيره من المعاجم أن مقابل الكلمة اللاتينية في الانكليزية يؤدي نفس هذه المعاني . أضف الى ذلك ان الاستاذ وليم جيمس قال في كتابه :

Philosophical Conceptions and Practical Results (1898) ما يلي :

"The principle of Practicalism or Pragmatism, as he (C. S. Pierce) called it when I first heard him enunciate it at Cambridge (Mass.) in the early 70s is the clue .... by following which ... we may keep our feet upon the way".

وجاء في الكتاب نفسه ص ٦ ما يلي : —

"To attain perfect clearness in our thoughts of an object, then, we need only consider what effects of a conceivable practical kind the object may involve. Our conception of these effects, then, is for us the whole of our Conception of the object, so far as the conception has positive significance at all. This is the principle of Pierce, the principle of Pragmatism.

وفي هذين الشاهدين اكبر مسوّغ لان نطلق على هذا المذهب اصطلاح المذهب العملي من غير أن نبالي شيئاً . اما قول المؤلف « البراجاتزم او مذهب الذرائع » ، فتمحل لا معنى له . لا سيما اذا علمنا أن مؤلفين من الاعلام مثل كدّول (Cadwell) وشلر Schiller قد قرنوا دائماً ذكر كلمة pragmatism بكلمة practicalism واستعملوها مترادفتين . وقد سبق للدكتور مسّوف ترجمتها في المقتطف بـ « الفلسفة العملية »

وليس لي أن أنطرق من ثمّ الى شرح ما يقصد بهذا الاصطلاح، وانما ينبغي لي أن أعود الى مختلف المصطلحات التي استعملها المؤلف في العربية للدلالة على هذا الاصطلاح فقال في عنوان الكتاب « البراجاتزم او مذهب الذرائع » ، ثم قال « الفلسفة الاميركية » (ص ٤٥) ونظرية البراجاتزم (ص ٥٨) وفلسفة البراجاتزم (٦١ ، ٦٣) والنظرية الفلسفية المعروفة بالبراجاتزم (ص٧٩) والبراجاتزم (فقط) في (ص ٨٠) . ولن نخرج من مجمل البحث بتحديد، ذي ضوابط نعرفه هي فلسفة ام نظرية ام مذهب، والفروق بين هذه الاشياء كبيرة، اذا اتفقت ، اختلطت ليس الامر

(٢) Realisies — ذكرها المؤلف في ص ١٩ ، ٩٠ ، ١٤٨ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢١٤ . فقال الحقائق . ثم قال في ص ١٣١ « الوجود » . وقال في ص ١٧١ الحقائق الصحيحة ، مما يشعر بأن هنالك في هذا المذهب او في غيره من المذاهب حقائق كاذبة او مزيفة

(٣) Facts — ذكرها المؤلف في ص ١٢ فقال الحقائق . فيستحيل ايضاً انها بنفسها الحقائق التي عناها اصطلاح Realities في حين ان المقصود بهذا الاصطلاح « الامور الواقعة » ولا يقصد بهذا الاصطلاح في هذا المذهب غير هذا

(٤) First Cause — ذكره المؤلف في ص ٣٣ فقال السبب الاصلي او الاولي . وقوله الاصلي يشعر بأن هنالك سبب مربب ، وقوله اولي يشعر بأن هنالك سبب ثانوي . وهذا بعد ما يكون عن المقصود . وانما المقصود بالاصطلاح « العلة الاولى » كما قال جميع فلاسفة القدماء

(٥) Facts of Experience — ذكرها المؤلف في ص ٣٨ فقال الحقائق الموضعية ، وكرر هذه العبارة في اكثر من جملة واكثر من موضع ، ثم ذكرها في ص ٧٢ فقال حقائق الاختبار وزاد الى ذلك أن ذكرها في ص ٧٣ اي في الصفحة التالية فقال الحقائق الخارجية

ولعل المؤلف الفاضل اراد بالحقائق الموضعية ومعناها الحرفي الحقائق ذات الموضع او المكان ، ان يقول الحقائق الموضوعية ، وهذه معناها Objective facts اما الموضعية فلا معنى لها على اطلاق القول . اما حقائق الاختبار والحقائق الخارجية فبينها من الفروق ما بين الثريا وسهيل

(٦) Determinism — ذكرها المؤلف الفاضل في ص ٣٦ فقال « الفلسفة الجبرية » وهذه في الحقيقة معناها Fatalism اما هذا الاصطلاح فأحسن ما يترجم به ان يقال فيه « التوقفية » وهذا اصطلاح اضعهُ لاول مرة ، فلا اقطع بصلاحيته التامة للدلالة على المعنى المراد من الاصطلاح الفرنجي المقتضي انه عملاً يتوقف إتيانه على سبب او اسباب خارجة عن ارادة الانسان واختياره . واليك ما جاء في معجم سنشوري ص ١٥٧٣ ج ٢ :

Determinism : A term invented by Sir william Hamilton to denote the doctrine of necessitarian philosophers, who held that man's actions are uniformly determined by motives acting upon his character, and that he has not the power to choose to act in one way so long as he prefers on the whole to act in another way. Determinism, does not imply materialism, atheism, or denial of moral resposibility; while it is in direct opposition to Fatalism (الجبرية) and to the doctrine of freedom of the will.

وأني لا أكتفي بهذا الشاهد فلا ازيد عليه شيئاً ، وان كان بين يدي من الشواهد ما يزيد الامر بياناً وجلاء

(٧) — Indeterminism — ذكرها الاستاذ المؤلف فقال الارادية (ص٣٧) ولاول وهلة يظن المطالع ان المقصود بها نظرية الاختيار Free-will في حين ان المقصود بها « التوسطية » اي ان الارادة لا هي توقفية صرفة ، ولا حرة صرفة . ولا أني أضع هذا الاصطلاح لاول مرة ، فلا أقطع بصلاحيته التامة ، على ما قضيت في الاصطلاح السابق

واليك ما جاء بمعجم سنشوري ص ٣٠٥٦ ج ٣ :

"The doctrine that though the will is sometimes influenced by motives, it is not necessarily governed with reference to them." Standard and Dictionary. Hodgson.

وهذا في معجم (كنجزبرد انكبير) هو :

"The philosophical theory that human action is not necessarily determined by motives, but is to some extent free."

وأظن أن هذين الشاهدين كافيان لتأييد ما ذهبت اليه من ان المقصود بالارادية هو التأديبية ، وان الوسطية خير ما يطلق على هذا الاصطلاح

(٨) Absolute Idealism — ذكرها المؤلف في ص ٥٩ فقال « الفكرة المطلقة » ، والغالب ظني ان المقصود بها « المثالية المطلقة » أو المجردة ، أي البعيدة عن كل ما يشوب المثاليات من الماديات أو متعلقاتها

(٩) Ontology — قال المؤلف في ص ٦٩ « الوجود ذاته » مرة . وأخرى « الحقائق الكونية » ، وبين العبارتين خلاف مدرك لأول وهلة ، فلا شك في ان الوجود خلاف الحقائق ، والذات خلاف الكون . ثم قال في (ص ٧٩) قضيه الوجود ، ثم (وفي نفس الصفحة) الحقيقة في ذاتها ، فأيهما يعني وأيهما الحق ؟ ثم قال في (ص ٩٥) حقيقة الموجودات . وفي هذا ما من شأنه أن يجعل المطلع يتعثر بدوار أشبه بذاك الذي يشعر به أولئك الذين يلكمهم يد الصحراء

(١٠) Idealists — ذكرهم المؤلف في (ص ٧٣) فسماهم المفكرين ، وما من شك في ان هذا وهم وحقيقتهم المثاليون

(١١) Mysticism — ذكرها المؤلف في (ص ٨٠) فقال الصوفية في المعرفة ثم قال في (ص ٨١) الصوفية فقط . وما من شك في أن التصوف له اتصال بهذا الاصطلاح ولكن يحسن ان نفصل بينهما فنقصر كلمة التصوف على المذهب عند المسلمين Sufism ، ونقول في هذا الاصطلاح « التألهية » بمعنى محاولة الاتصال بالله واتشبه به كما تقضي بذلك مجمع اللغة العربية الملكي

(١٢) Truths — قال المؤلف الحقائق في ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، وقال الحق في ص ٨٢ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، وقال الحقيقة مرتين في ص ١٠٥ ، وقال حقائق الكون في ص ١٥٦

ثم يأتي بعد ذلك اصطلاح Reality فقال الحقيقة ص ٨٦ ، ٨٨ و ١٦٠ ، ثم قال حقيقة واقعية في ص ١٥٠ : وقد استعمل المؤلف المصطلحين ليقوم أحدهما مقام صاحبه بدون تفريق . ولا شك عندي في ان اكثر ما جرى في الكتاب من أسباب الغموض انما هو راجع الى الاضطراب بين هذه المصطلحات في الاستعمال واطلاقها للدلالة على أشياء مختلفة مع اتفاق حروفها . وعندي انه يمكن التفريق بينها فنقول

أولاً — Facts الأمر الواقع وجمعها الأمور الواقعة . ثانياً — Duties الحق وجمعه الحقوق . ثالثاً — Realities الحقيقة وجمعها الحقائق . رابعاً — Actuals الفعلي — أخذ من أصلها اللاتيني actus أي شيء وفي actualities وجد الجمع أن تتكتب طريق الأجهاد

(١٣) Christian Sciences — ذكر المؤلف في ص ٤٠ أن علماء المسيحيون ضنّ منهُ أنهم علماء يمسون الى النصرانيا وانما هم دجالون لهم علم سمي العرانصري Christian Science أشبه بعلم الركة عندنا والله أعلم

(١٤) Rational — ومشتقاتها : ذكر الاستاذ Rationalism فقال جماعة العقليين (ص ٨٠ ، ٨٧) ثم الفلاسفة العقليون (ص ١٥١) ثم ذكر اصطلاح Rationalism فقال الطريقة العقلية مرّة (ص ٩٤) ثم النظرية العقلية في المعرفة مرّة اخرى (ص ٩٦ ، ١١٢ ، ١٦٥) ولم يكتف بهذا فقال النظرية العقلية فقط (ص ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٣٨ الخ) ثم لم يكتف بهذا ايضاً فقال الفلسفة العقلية (ص ١٥٢) ثم سوّد عين هذا الاصطلاح فأطلق عليه اصطلاح الميتافزيقا (ص ١٧٥)

ثم ذكر Rationalistic System of Knowledge في ص ١١٦ ، فقال النظرية العقلية في المعرفة ، والمقصود تعيناً ليس نظرية لان نظرية Theory ، وانما هو نظام المعرفة العقلي أو أسلوب المعرفة العقلي . وما دون ذلك وهم

ثم ذكر في ص ٢٣٤ اصطلاح Traditionalistic Philosophy فقال الفلسفة التقليدية ، فكانت ثالثة الاثافي . لأن التقليدية ليست فلسفة ولا مذهباً وانما هي نزعة عقلية اصطلح على تسميتها Traditionalism . وانما المقصود بالاصطلاح الفلسفة العقلية ، وهذا مدلولات عديدة اختلفت باختلاف الزمان والمكان

(١٥) Humanism — ذكرها الاستاذ في ص ١٥٨ فقال البشرية ، ثم قال النظرية البشرية في ذات الصفحة . وكأنهُ قصد بما كتب اصطلاح Humanitarianism والفرق شتيت بين الاصطلاحين . فلو انهُ أراد الاصطلاح الثاني لقال الانسانية ، وهي ليست فلسفة ، وانما هي نزعة عقلية أو نفسية . أما اصطلاح Humanism فالمقصود به احياء الثقافة القديمة ، وقد دعوها « الإحيائية » اصطلاحاً

(١٦) Scepticism — ذكرها المؤلف في ص ١٢٨ فقال النظرية اللا أدرية في المعرفة ، ثم قال في ص ١٨١ اللا أدرية وفي ص ١٣٨ ذكر اللا أدريون Sceptics . وكل هذا اسراف ووهم ، فالمقصود بالاصطلاح الشكيون أو اصحاب الشك ومذهبهم الشكية . واللاأدرية Agnosticism

جاء في معجم بلدوين ص ٤٨٩ ج ٢ ما يلي

3 — The theory that Positive and certain truth is not attainable by the human intellect.

2 — The theory that it is necessary to doubt before reaching truth.

وجاء في معجم سنشوري ص ٥٦٦٨ ج ٥

The entertainment of manner, doubt, or disbelief; especially, the reasoning of one who doubts the possibility of knowledge of reality; the systematic doubt which characterizes a philosophical skepsis; specially, doubt or disbelief of the fundamental doctrines of the Christian religion.

وفي معجم اكسفورد الكبير ص ٢٠١٠ ج ٩ : ما يلي

Sceptic : One who, like Pyrrho and his followers in Greek antiquity, doubts the possibility of real knowledge of any kind; one who holds that there are no adequate grounds for certainty as to the truth of any proposition whatever. Also, often applied in a historically less correct sense, to those who deny the competence of reason, or the existence of any justification for certitude, outside the limits of experience.

Scepticism: (1) The doctrine of the sceptics; the opinion that real knowledge of any kind is unattainable. (2) Sceptical attitude in relation to some particular branch of science; doubt or incredulity as to the truth of some assertion or supposed fact; also, disposition to doubt or incredulity in general; mistrustfulness; sceptical temper.

فهل بالاستاذ المؤلف من حاجة الى البيان بعد هذه الشواهد ؟

(١٧) — Agnosticism — ذكرها الاستاذ في ص١٣١ فقال التشككية ، ولا شك مطلقاً في انها اللاأدرية التي وضعها من قبل لاصطلاح Scepticism

جاء في معجم اكسفورد الكبير ص ١٨٦ ج ١ :

AGNOSTIC : unknown, unknowing, unknowable.

One who holds that the existence of any thing beyond and behind material phenomena is unknown and (so far as can be judged) unknowable, and especially that a First Cause and an unseen world are subjects of which we know nothing. This term is first suggested by Huxley in 1869.

AGNOSTICISM

The doctrine or tenets of Agnostics.

Quotations :

1871 — R. H. Hutton. Ess. I. 135. — They themselves vehemently dispute the term (Atheism) and usually prefer to describe their state of mind as a sort of Know-nothingism, or agnosticism, or belief in an unknown and unknowable God.

1897— Huxley, Hume i; 60 — Called agnosticism, from its profession of an incapacity to discover the indespensable condition of either positive or negative knowledge.

1880—Sat. Rev. 26 June/ 1892 — In nine cases out of ten Agnosticism is but old atheism 'writ large'

وهذه هي اللاأدرية بعينها وليس سواها :

هذا قليل مما وقع لي في كتاب « البراجازم او مذهب الذرائع » اعرضهُ للتمحيص

اسماعيل مظهر